

# الأفتالجية

## الدين، الفن والتصوف: روایة كلّ تففیة ثلاثیة

د. حبيب فياض

ما هي المبررات الموضوعية التي تدفع إلى البحث عن علاقة مفترضة بين الدين والفن والتصوف؟ وكيف يمكن التعامل منهجياً مع هذه المجالات والنظر إليها وفق مقاييس آلية واحدة أو متقاربة رغم ما قد يبدو بينها من تغاير وتبابن؟ ثم ما الذي يمكن أن يترتب معرفياً على مثل هذا الخوض المنهجي في هذه المجالات ووضعها في خانة بحثية مشتركة مع اختلاف الفضاء المعرفي والموضوعي الذي يتکامل وينفعل فيه كل واحد منها؟

بداية، لا بدَّ من القول: إن الإجابة على الأسئلة المشار إليها تفترض مسبقاً تحديد ماهويات كل ضلع من أضلاع ثلاثة الدين والفن والتصوف انطلاقاً من الفهم السائد والمألوف إزاءها بعيداً عن الرؤى الخاصة والتصورات الاجتهادية. إذ في هذه الحال، يبدو العمل على مقاربة مكونات ومحددات هذه الثلاثية - وتحديداً من جهة الموضوع والمنهج والمعرفة - جهداً مبرراً وضرورياً، انطلاقاً من البحث في الترابط الماهوي بين أضلاعها وصولاً إلى الدور المشترك - فيما إذا كان متوفراً - الموكل إليها بلحاظ الوظيفة والغاية.

ورغم ما تستبطنه من أهمية فائقة، دراسة كل من الدين والفن

والتصوف - بنحو يدرس فيه كل واحد بمعزل عن الآخر - وما تتطوّي عليه من تأثير على تفكير الإنسان وسلوكياته، فإن الأهمية - بحسب ما نرى - تبدو مضاعفة وأكثر إلحاحاً إذا ما تمت دراسة هذه المجالات ومعالجتها على أساس ضمها إلى بعضها البعض والبحث عن مبادئها وغاياتها المشتركة، والتثبت فيما إذا كان ثمة اتساق وانسجام يجمع بينها، وبالتالي النظر في مدى إمكانية انتزاع رؤية مشتركة تفسح في المجال أمام اندراج الدين والفن والتصوف في منظومة وجودية واحدة تتطابق أبعادها المعرفية والغائية رغم اختلافها في التعبيرات والطرائق والتجليات.

بناءً على ما تقدم، نحاول فيما يلي إجراء مقاربة سريعة وأولية للإطار العام الذي يجمع بين الدين والفن والتصوف، وذلك انطلاقاً من طبيعة العلاقة التي تربط بين هذه الأمور الثلاثة من جهة الموضوع، المنهج، المعرفة، حيث سينكشف أمامنا، نتيجة ذلك، عمق الترابط - وربما التطابق - الكلي، الموضوعي والمنهجي والمعرفي، رغم التفاير بينها في التفاصيل والجزئيات.

### أولاً، في الموضوع:

ثمة تشابه في العلاقة بين الدين والفن والتصوف من جهة الموضوع، بنحو يصح القول معه: إن العلاقة بين هذه الثلاثية تقوم على وحدة في الجوهر مستمدّة من الوحدة في الموضوع.

موضوع الدين: الله الواحد هو الموضوع الذي تتمحور حوله كافة المسائل الدينية، إذ لا يمكن الوقوف على قضية دينية من دون أن تكون على صلة، بنحو ما، بالألوهية، وبالتالي فإن الأديان تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان وتعريفه على الخالق وهدایته إلى الطرق التي تؤدي به إلى طاعة الله من حيث هو – الإنسان – مخاطب الوحي الإلهي.

موضوع الفن: أما الفن فموضوعه هو الجمال، وتحديداً، هو الجمال المطلق الذي منه يستمد كل جمال وجوده، فيسعى الفنان، من خلال ملكاته الإنسانية الكامنة فيه، إلى البحث عن تجلّيات محدودة للجمال اللامتناهي الذي يتمثل ويحضر في الأشياء، ومن ثم التشبه به عن طريق إعادة إبداع محدود لتجليات الجمال المطلق الذي يكون الله تعالى مصادقه ومصدره في آن، بحيث يقف الفنان، بحسب المفترض، في نهاية الأمر على وحدة الجمالية الكونية.

موضوع التصوف: كذلك الأمر في التصوف إذ موضوعه هو الوجود الأحد المطلق الذي لا وجود لسواء، وكل عمل الصوفي إنما يهدف إلى الوصول إلى هذا الوجود والتوحد به والتخلّي عن كل الموجودات الظلية الموهومة حيث تتعذر الفاصلة بين السالك بما هو إنسان محدود والمقصد المطلق الوجود والكمال، وبذلك تتحقق السعادة للصوفي.

على هذا، يبدو واضحاً أن الموضوع الذي يشكل محور تلاقيٍ جوهرى بين الدين والفن والتصوف إنما هو واحد لا اختلاف فيه، ولكن يعبر عنه بعبارات مختلفة وينظر إليه من حيّثيات متعددة؛ وهذا الموضوع هو الله تعالى من حيث وحدانيته وإطلاقه وجماله.

هذا مع ضرورة ملاحظة تلاقي الإنسان (في هذه الأطروه الثلاث) بما هو ذات جامحة نحو موضوعها الواحد، عند هدفية الوصول إلى الله وملاقاته، مع اختلاف في طرق الكدح المؤدية إلى ذلك وتباين مستوياتها.

## ثانياً، في النهج

رغم التباين المنهجي في مجالات الدين والفن والتصوف إذ لكل مجال طريقته المنهجية المعتمدة في سبيل الوصول إلى المطلوب، إلا أن ذلك لا يمنع البتة من التعامل مع هذه المجالات وفق رؤية منهجية موحدة بمعزل عن المنهج المتبّع في كل واحد منها.. فهناك فرق بين العمل المنهجي الموحد على الدين والفن والتصوف. والعمل المنهجي المتبّع في كل دائرة من هذه الدوائر...

من هنا، يمكن مقاربة هذه الدوائر على خلفية منهجية موحدة انتلاقاً من رؤية فلسفية.. إذ النظر إلى أمرتين متباینین وفق منهجية فلسفية من شأنه تحديد مدى التقارب في الكلمات والغايات والمواضيع والمباني والمفاهيم والعلل من دون

الاستغراب في التفاصيل والجزئيات والمصاديق التي هي محل تبّاين في كل حال.

وعليه، فإن ثمة إمكانية لتشكيل دائرة بحثية واحدة تشتمل على الدين والفن والتصوف ويمكن تناولها بمنهجية فلسفية موحدة، يصار من خلالها إلى البحث حول فلسفة الدين وفلسفة الفن وفلسفة التصوف، وصولاً إلى رؤية كلية يتّحد معها التماهي في المبادئ والمقاصد والغايات والماورائيات.

وهنا، تجدر الإشارة، إلى أن البعد الفلسفي في هذه الثلاثية يمثل بعداً حاضراً

في كافة جوانبها ومتلبيساً في هويتها ومحايضاً لتكويناتها من دون أن يكون منفصلاً عنها أو مغايراً لها من خلال اصطفافه إلى جانبها كبعد رابع قائم بذاته.

### ثالثاً، في المعرفة:

يمكن مقاربة المسألة المعرفية في هذه الثلاثية انطلاقاً من المنابع المعرفية التي تشكل منهالاً في المعرفة لكل من الدين والفن والتصوف، وبالتالي النظر في مدى التقارب في المعطيات المعرفية على أساس التقارب معرفياً في المنابع والمصادر.

**المعرفة الدينية:** رغم تعدد مصادر المعرفة الدينية(عقل، وحي، حس..) إلا أنه لا خلاف في أن الفطرة تشكل منبعاً أساسياً في هذه المعرفة، فالفطرة السليمة تفضي إلى التدين والدين السليم يحاكي الفطرة (أقم وجهك للدين حنيفاً فطرة...).

**المعرفة في الفن:** يعتبر الإلهام شرطاً أساسياً ولازماً في المعرفة الفنية ومنجزاتها. والإلهام هنا، وإن حاول البعض تمييزه عن الفطرة، فهو في كل الأحوال هبة إلهية يعطيها الله لبعض عباده، وتكون الفطرة محلها ومتعلقها، إذ الإلهام ملكة فطرية تتمو بالتجربة والممارسة، إلا أن التجربة ليست مصدرأً لها أو علة.

**المعرفة الصوفية:** أما منبع المعرفة عند المتصوف فهو الفطرة ولا شيء غيرها وفي الأساس إن حركة السالك تهدف أساساً إلى العودة إلى الفطرة وإزالة ما يعلق بها من رواسب وكدورات.. وإن كان للفطرة عند المتصوف تعبيرات عديدة (الحدس المعرفي، النور، الكشف المعرفي، المعرفة المباشرة...) إلا أن الفطرة تشكل مرجعاً أو منشأ لكل هذه التعبيرات.

وبالعموم يمكن القول: لا معرفة عرفانية وصوفية من دون التمسك بالفطرة السليمة ...

وإذا كان التلاقي في منابع المعرفة بين الدين والفن والتصوف يكاد يبلغ هذا المبلغ من التوحد، فليس من المستغرب أن تكون المضيّات والمرتّبات المعرفية الناتجة عن كل ذلك واحدة أيضاً، رغم الاختلاف في التجلّيات والتّعبيرات؛ فالمعرفة الدينية تقوم على معرفة الإله الواحد وطاعته، والمعرفة الصوفية تتّشد الوصول إلى الوجود المطلق (الله) والتّوحد به، كما إن المعرفة في الفن تتّطلع إلى الكشف عن الجمال المطلق والواحد والاتصال به والتشبه بجماله.

وخلالصـة ما تقدم أن العلاقة بين الدين والفن والتصوف إنما هي علاقة مشتركة

بين الإنسان بسلوكياته وفعالياته المختلفة وبين المطلق الواحد بتجلياته المتعددة، حيث إن المقصود النهائي لهذه العلاقة رفع النقص لدى الإنسان، وبلوغه الكمال، وحصوله على السعادة.

ونحن في مجلة المحجة إذ نفرد محور هذا العدد للعلاقة بين الدين والفن والتصوف، فإنما نهدف من وراء ذلك إلى مقاربة رؤية تأسيسية نستطيع من خلالها التعامل مع هذه المجالات من منظور فلسفى، وصولاً إلى تحديد مكان الالقاء في المبادئ والغايات والوظائف، من دون أن يعني ذلك، الادعاء بأن موضوعات المحور تقى بالغرض وتؤدى إلى المطلوب كله، بل هي مجرد خطوة تحتاج إلى خطوات عديدة شاقة وصعبة، وهي رهن بجهود الباحثين والمتخصصين.. والله من وراء القصد.